النار فوق الأرض المقدسة

فوق الأرض المقدسة كانت طلائع الشعب المصري المسلحة تعيد اكتشاف روح مصر الضائعة وبالنار والدم اكتشفت هذه الطلائع من جيش مصر المبارك الحقيقة الخالدة التي غيبتها أيدي آثمة « إن مصر هي جزء من أمة عظيمة ...هي الأمة العربية»وإذا كان العرب قد عربوا مصر لغويا فإن مصر قد مصرتهم جنسيا كما يقول الراحل العظيم جمال حمدان ولله وللتاريخ ننعش ذاكرة البعض فنذكر أن سيدنا إسماعيل أبا العرب هو ابن الأميرة المصرية «هاجر » وأن إبراهيم وَلَدَ الرسول العربي الكريم كان ابن مارية المصرية وكان الوصال بين مصر والعرب قديما وليس جديدا وما كان الفتح العربي إلا إعادة وصل ما انقطع .

❊❊❊

كان موكب أمير المؤمنين يقطع فيافي البادية في طريقه إلي « القدس » أولي القبلتين وثالث الحرمين ومسري النبي الأمين ونقطة القيام في رحلة المعراج ... لم تكن قد مضت سوي بضع سنوات علي رحيل محمد – صلي الله عليه وسلم – كان الصديق والرفيق والأب الحنون والصهر المؤتمن ، لم يكن فقط رسولا ومبلغا بل كان كما قال عنه ربه – رحمة مهداة – كان التجسيد الحي للإنسانية تسامحا ووفاء وأخلاقا ، كانت الذكريات تهاجمه طوال الطريق موقفه العدائي والكراهيةغير المبررة لمحمد ثم الحب المفرط بعد أن ألقي الله في قلبه الهداية ، وتقريب الرسول له فكان وزيره المقرب ومستشاره المفضل وكاتم أسراره ... يتذكر يوم أن ذهب إليه غاضبا وحزينا في آن من صديقيه أبي بكر وعثمان وتلقاه – صلي الله عليه وسلم – باشا هاشا مبتسما : «ما بك ياعمر ؟» لاشيء ولكنه عرف أن هناك شيئا ما، ومازال به حتى باح له بما كدر خاطره ... لقد ذهب إلي أبي بكر عارضا عليه زواج ابنته حفصة وأشاح عنه رافضا فذهب إلى عثمان مكررًا الطلب وتكرر الرفض ... تبسم الرسول ضاحكا وقائلا : «والله ليبدلها الله خير منهما» ... تساءل عمر ومن هذا الذي هو خير منهما ؟

أجاب الرسول : أنا... لم يتصور عمر كيف طاوعه قلبه يوما ما أن يكره هذا الرجل ، ولكن سبحان الله لم يكن هناك بعد إسلامه من أقرب إلي قلبه من هذا الرجل، وعندما رحل لم يصدق ... كانت صاعقة قد انقضت علي رأسه ورفض أن يصدق أن هذا الرجل قد رحل ، ولولا أبو بكر لذهبت الفاجعة بعقله وهاهو بعد رحيل أبي بكر هو الآخر قد ألقيت المسؤولية علي عاتقه ... ما أبعد الليلة عن البارحة ، من يصدق هذا، منذ عدة أعوام لم تتعد العقد الواحد كانت الدعوة نفسها في مهب الريح والرسول نفسه كاد أن يدفع حياته ثمنا للرفض البدوى لدعوة التغيير ... أكثر من مرة ولكنها إرادة الله الذي شاء – يمكرون والله خير الماكرين – ...

انتبه عمر علي صوت المنادي: « هاهي المدينة المقدسة »– مدينة السلام – تلوح في الأفق وعلي مرمي البصر كانت جموع المستقبلين تقف غير بعيدة من أبواب المدينة ... لمح من بعيد صديقه أبا عبيدة بن الجراح قائده العام علي جيوش منطقة الشام وهاهو عمرو بن العاص قائد المنطقة الجنوبية وهاهو شرحبيل بن حسنة قائد المنطقة الوسطي ... تلقاه الجميع بالبشر والحبور ، انتحي به صديقه وقائد جيوشه وأخبره أن جدول الزيارة مشحون ومزدحم وهو يري عدم الاستغراق في المسائل الاحتفالية والبرتوكولية وافق سريعا فهو يريد أن يرجع سريعا للمدينة المنورة عاصمة الخلافة فجدول أعماله هو الآخر مزدحم ولولا طبيعة المناسبة ودعوة أبي عبيدة التي لمس فيها شيئا خفيا ومقلقا ما أتى، فأخبار المنطقة التي يحملها له البريد بانتظام عودة وذهابا وزيارات محمد بن مسلمة المفتش العام و رئيس ديوان المحاسبه تجعله علي بينة من كل شيء .

مضى اليوم الأول في استقبال الوفود والاجتماع مع رؤساء الطوائف وزعماء القبائل والرؤساء الدينيين وزيارة هنا وخطاب هناك ... كان يوما مرهقا وماكاد المساء يأتي حتى استدعي أبو عبيدة الذي أخبره أن هناك اجتماعا لأركان القوات في

اليوم التالي برئاسة أمير المؤمنين نفسه باعتباره القائد الأعلى للقوات ... كان الاجتماع في خيمة القيادة بمنطقة « الجابية بالجولان» ، كان علي عمر أن يستريح ساعتين قبل أن يبدأ مسيره قبل الفجر لبلوغ مكان الاجتماع قبل غروب الشمس ، لم يناقش عمر كثيرا فهو يعلم جيدا أنه اختار للمهمة خير الرجال ، وتقدير الموقف جيدا هي سمة رجله الأول...بعد صلاة العصر في اليوم التالي كان عمر يأخذ موقعه علي رأس الإجتماع ، كان القادة كلهم حاضرون بدأ أبو عبيدة الحديث وبعد الصلاة والحمد شرح علي خريطة مرسومة علي قطعة من الجلد الموقف في الشام «تقدير موقف يعني»... كانت جيوش المسلمين تجتاح سهول الشام كإعصار أو فيضان ولم تنجح جبال الشام التي توازي الساحل في حماية الروم الذين فروا وتحصنوا بمدن الساحل الحصينة من أول عكا إلي صور إلي بيروت إلى أنطاكية ...حسنا ، ماهي المشكلة ؟ طلب أبو عبيدة من أمير المؤمنين أن يرافقه خارج الخيمة ، في الخارج كان المنظر جميلا وموحيا ... كانت قمة الجولان التي تتواصل مع الجليل الأعلى كانت قطعان السحب البيضاء تكاد تلامس الرؤوس وعلي مدي البصر تبدو غمامات تقع خلفها سواحل المتوسط ، أشار أبو عبيدة بسبابته ناحية البحر قائلاً : أن الروم المتحصنين خلف الأسوار الحصينة يتلقون المدد طعاما وسلاحا من البحر بينما يقف جنودنا تحت الأسوار في حصار لايبدو له نهاية ويراهن المتحصنون علي اليأس والإحباط ... يأسنا نحن وإحباطنا نحن ، تسأل أمير المؤمنين ومن أين يأتي هذا المدد الذي لاينضب ..؟ أجاب أبو عبيدة : من مصر يا أمير المؤمنين ، لبرهة تفكر عمر ثم أعلن قراره التاريخي : فليكن علي بركة الله وجهوا عمرو لفتح مصر وطرد الروم منها .

كان القرار رغم ضرورته العسكرية إنما أيضا تنفيذا لوصية ونبوءة قديمة

لقائدهم ومعلمهم الأول « إذا فتح الله عليكم مصر فاتخذوا منها جندا كثيفا فإنهم خير أجناد الأرض ، وهم في رباط إلي يوم القيامة » وصدقت نبوءة الرسول الكريم وكانت مصر عند حسن ظنه بها لم تخذل الإسلام أو المسلمين أو المستضعفين والمقهورين ، وكانت يد الله العادلة تنزل عقابه الصارم بالمعتدين والظالمين مغولا وصليبيين وصهاينة وأمريكان إلي أن جاء زمان تبدلت فيه الأحوال فكانت مصر عونا للمعتدين فأنزل الله بهاغضبه !!

ونتيجة لما لعبته مصر من دور بالغ الأهمية في نشر رايات العدل والحرية علي ربوع العالم كان ضرب مصر – وتكسيحها – البند رقم واحد علي أجندة أي قوة عدوانية طوال التاريخ ، وفي العصر الحديث نتذكر جميعا الحلف غير المقدس مابين أوروبا الاستعمارية المتخفية وراء الصليب وبين تركيا العثمانية التي يتباكي عليها بعض المسلمين والذي تجسد في معاهدة لندن ١٨٤٠ والذي استهدف في النهاية التمكين للقوي الاستعمارية الغربية من المنطقة وكان البدء تقسيم الوطن العربي ، ونتذكر جميعا ذلك البيان (الحقير) الذي أصدره عبد الحميد الثاني بعصيان عرابي لتمكين توفيق الخائن والإنجليز من أرض مصر كمقدمة أولي للتمكين في كل الأرض العربية ، ولم يكن هذا غريبا علي سلطان اعتلى عرشه بالغدر والخيانة والإنقلاب علي سابقه مراد الثاني ، ومازال السيناريو قيد التنفيذ بعد أن نجح ابن مصر البار جمال عبد الناصر في موقفه إلي حين إبان اعتلائه السلطة في مصر منتصف القرن الماضي ، فمازالت نفس القيود التي وضعتها معاهدة لندن ١٨٤٠ بتحديد عدد الجيش المصري هي نفسها الشروط التي وضعتها إسرائيل لعدد القوات المصرية سواء في سيناء أو حجم تسليحها عامة وتعهدت الولايات المتحدة الأمريكية بضمان تنفيذها عبر اتفاقية كامب ديفيد وملحقاتها خاصة اتفاقية التعاون الاستراتيجي بين الولايات المتحدة وإسرائيل والتي وقعت في نفس الشهر مارس

١٩٧٩ والتي تعهدت فيها الولايات المتحدة لإسرائيل (بتأديب) مصر إذا هي جرأت وخرقت أي من بنود الإتفاقية والتي تعتبر بموجب القانون الدولي جزء متمم لاتفاقية الكامب وسوف يقيض الله لمصر – إن شاء الله – من أبنائها من يعيد الأمور إلي نصابها الصحيح ،﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ .

***

وهناك علي تخوم الشام كانت مصر الناصرية تعيد تأمين حدودها الشمالية وفق أبسط قواعد الطوبوغرافية العسكرية التي تضع مصلحة مصر وبالتالي مصلحة الأمة العربية فوق أي اعتبار ...كان هذا درس عمر بن الخطاب وصلاح الدين الأيوبي قاهري الرومان والصليبيين في حطين الشامية – درس المحبين – وكان هذا درس المماليك العظام كسيف الدين قطزوالملك الظاهر بيبرس قاهري المغول في عين جالوت الشامية – درس العقلاء – وكان أيضا درس الجنرال اللنبي قاهر الأتراك في موقعة نصيبين شمال الشام – درس الأعداء – ولهذا قصة تستحق أن تروي .... فقد سلك اللنبي طريقا ساحليا وعرا ضيقا غير مطروق كان قد تعرف عليه من قراءة سيرة الملك المصري العظيم رمسيس الثاني قاهر الحيثيين في موقعة «قادش » الذي فاجأ الأعداء في لحظة حاسمة قلب فيها موازين المعركة بعد أن كادت الدائرة تدور علي المصريين ، لقد فشلت عيونهم في رصد قوات المدد المصري الذي أتي لساحة المعركة من طريق ساحلي مهجور ومجهول .

***

وبعد قيام الثورة حضر إلي مصر زائرا السير أنطوني إيدن رئيس وزراء بريطانيا – حينذاك – كان يعتقد أنه العجوز المحنك وريث السياسي المخضرم تشرشل في كرسي رئاسة الوزارة فضلا عن زواجه المتأخر من بنت أخيه ، كانت هذه المؤهلات

من وجهة نظره تعطيه الحق في إسداء النصائح للتلاميذ المبتدئين الذين وصلوا للسلطة بالصدفة ، ساعده علي ذلك المنظر البائس للضباط ببدلهم الميري وجهلهم – الفظيع – بقواعد الإتيكيت وبالرغم من ذلك غادر مصر حانقا علي هؤلاء الضباط الذين رفضوا حديثه عن حلف بغداد ، وجاء الثعلب الأمريكي « جون فوستر دالاس » وزير خارجية الولايات المتحدة ... كان العجوز الأمريكي ينتمي لأسرة لاهوتية ، وجاء مطالبا عبد الناصر بنفس المطلب ، دخول مصر في ترتيبات أمن مع الغرب وحلف بغداد ، كان الدافع والمبرر من وجهة نظره هو مواجهة الاتحاد السوفيتي وبذلك يكتمل الحصار بعد حلف شمال الأطلنطي وحلف جنوب آسيا ، حاول عبد الناصر إفهامه أن الخطر الحالي والمحدق بنا هو إسرائيل وليس الاتحاد السوفييتي الذي تفصلنا عنه خمسة آلاف كيلو ، لم يقبل دالاس هذا المنطق الفاسد من وجهة نظره وقرر طرد عبد الناصر من جنته وإلي الأبد- مش قلنا إنه من عائلة كلها رجال دين متشددون- ... وحسنا أنه فعل ، وبعد العودة نصحه بعض المقربين منه « مادامت النصيحة لم تنفع ، لماذا لاتجرب ذهب المعز » ... بعثوا لعبد الناصر رشوة تقدر بحوالي ثلاثة ملايين دولار تحت دعوي الإنفاق علي ترتيبات أمنه الشخصي وسد مالم تلبيه موازنة الدولة(!!) قرر عبد الناصر – المجنون – تلقين الولايات المتحدة درسا ... وكان الدرس « خازوقا » كبيرا لم تشف الولايات المتحدة منه حتي الآن ، كان الدرس / الخازوق الذي بني بالرشوة الأمريكية ... « برج القاهرة ».

إذن فشلت كل محاولات النصح والغواية وجاء دور الإرهاب ، سحب البنك الدولي عرضه بتمويل السد العالي وتدخلت بريطانيا العظمي وفرنسا (العظمي) ومعهم إسرائيل لتأديب عبد الناصر والقضاء عليه ليكون عبرة لأي مجنون حالم بالحرية وكرامة بني الإنسان ... ومن الغريب أن يعتقد بعض ذوى الغفلة أن

الولايات المتحدة بوقفتها ضد العدوان قد أفشلته ... كيف ذلك ؟!! وهي سبب المشكلة ومنذ متي كانت الولايات المتحدة تقف بجانب الحق ... خاصة إن كان عربيا وتشهد علي ذلك أضابير الأمم المتحدة وجرائم الحرب العنصرية التي ارتكبتها دولة الكيان الصهيوني ضد العرب تحديدا ... في كل ذلك كانت الولايات المتحدة وإسرائيل وحدهما يقفان ضد كل المجتمع الدولي ، ونتحدي أي صهيوني حتي وإن كان يحمل إسما عربيا أو الجنسية (...) أن يأتي بموقف واحد ... واحد فقط وقفت فيه الولايات المتحدة مع الحق العربي ، كانت الولايات المتحدة قد أدركت أن العدوان قد فشل فحاولت أن تنقذ بعض ماء وجهها لعل وعسي أن يعطيها القدر فرصة أخري ... كان النصر الكبير علي العدوان هو النتيجة الطبيعية للقراءة الطبيعية الصحيحه لموقع مصر الطبيعي والصحيح في منطقتها تلك القراءة التي وضع أسسها رمسيس الثاني وأعاد التأكيد عليها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وأكد عليها القائد الفذ صلاح الدين الأيوبي والأفذاذ سيف الدين قطز والظاهر بيبرس وقادة عظام من أمثال الشهيد عبد المنعم رياض، وسعد الدين الشاذلي ومن قبلهم عبد الناصر الذي هدد بدخول المعركة بجانب سوريا في حال تعرضها للعدوان تنفيذا لميثاق الدفاع العربي المشترك الموقع في بدء إنشاء جامعة الدول العربية١٩٤٥ ... ونعلم جيدا مدي التزام مصر باتفاقاتها الدولية (!!) كانت سوريا موضع تهديدات صادرة من أعلى مستوى في إسرائيل – مجلس وزرائها – ومن الغريب أن يكون من حق إسرائيل أن تهدد جيرانها ولايكون من حق المعرضين للتهديد أن ينهضوا لرد العدوان . في أثناء عدوان إسرائيل علي قطاع غزة ٢٠٠٨ تطوع الرئيس حسني مبارك في حديث متلفز لتبرير العدوان الإسرائيلي وغلقه الدائم للمعابر بأن قطاع غزة منطقة محتلة (!!) ومن حق دولة الاحتلال أن تعرف وتراقب كل ما يدخل إلي مناطق الاحتلال ... نسي سيادته أن ميثاق الأمم المتحدة

وكل شرائع الأرض والسماء تعطي المعتدي عليهم ومن تعرضوا للاحتلال الحق أن يقاوموه بكل وسيلة ممكنة مشروعة وغير مشروعة، وعلي المجتمع الدولي أن ينهض كله متضامنا لرد العدوان وإنهاء الاحتلال ... كل هذا جميل ، ولكن العرب وحدهم ... وحدهم فقط ممنوع عليهم مقاومة أي اعتداء يقع عليهم وإن فعلوا صاروا إرهابيين .